المنطق الخفي في دماغ الطائرات

في الموت حياة وفي المرارة حلاوة

لحضرة الكاتب القدير الأستاذ حنا خباز

حول مدينة نيويرك بأمركا كثير من المدن والقرى ، تصلها بنيويرك خطوط البخار والبرق ، فتجعلها معها كمدينة واحدة . وينتقل بتلك الخطوط يومياً ملايين من الناس . ففي نيويرك ، ومحيطها أعظم حركة انتقالية في الدنيا . اذكر من تلك الضواحي على الخصوص ما كان في القسم الملاصق نيويرك من ولاية نيوجرزي . كمدينة « جرزي ستي » على نهر هدصن الفاصل بينها وبين نيويرك . وسكان جرزي ستي ٣٢٠ الفاً . يصلها بمدينة نيويرك نفق تحت النهر تسير فيه عربات الكهرباء ويدعونها أو يدعون النفق « صبوي » أي الطريق السفلي . وتسير كذلك كبيرات المعديات بين المدينتين على سطح النهر ويدعونها « فِري » .

ومن تلك الضواحي مدينة « نو ارك » سكانها ٤٢٠ الفاً وهذه أيضاً يصلها بنيويرك الصبوي والفري . وكذلك مدينة باترسن وسكانها نحو ٢٠٠ الف . هذا عدا باسيك وها كنساك وهوبكن وبايون ووست نيويرك وعدا مئات من القرى والمزارع والدساكر المتصلة بنيويرك بخطوط البرق والبخار السائرة بينها وبينها ليلا ونهاراً بلا انقطاع .

ولكي يتصور القاريء غرابة الحركة العظيمة في ذلك الوسط أقول أن شركة « بروكلين ترانزيت » وحدها ، وهي واحدة من شركات النقل هنالك ، هذه الشركة تسيّر في ساعات الزحام صباحاً ومساء ، كل ساعة سبعمئة وخمسين قطاراً بجر كل قطار خمس عشرة عربة كبيرة ، فيها نحو الفي راكب . هذا عدا قطار لاكوانا ، وقطار ايري وقطار بنسلفانيا وقطارات نيوجرزي التي تعد بالالوف وتحمل يومياً ملايين من الناس .

وقد اعتاد الناس أن يسكنوا في الضواحي وشغلهم في نيويرك ، فيركبون

الصابوي أو القطار الحديدي ، أو الفري ، كل صباح وكل مساء من نيويورك واليها والذي يحلّ تلك البقاع حديثاً يدهش لوفرة التقليات وجمجمتها وفخامتها وغرابتها دهشة لا يحيط بوصفها القلم .

كان لي في مدينة باترسن أقارب ، كنت أزورهم وأبيت في بعض الاحايين عندهم ، وأعود في صباح اليوم التالي الى مدينة نيويورك ، مع الجماهير الغفيرة التي لا يدرك الطرف لها آخراً .

وفي ذات صباح ذهب أقاربي الى أعمالهم كالعادة وأوعز اليّ من بقي منهم في البيت أن أركب السكار مرة كذا . وأخبروني في أية زاوية انتظاره . ففعلت ، ولكني خطأ ركبت القطر الذي يسير في عكس الجهة المقصودة . وعوض ذهابي في خط ا ج سرت في خط ج ا . ولم أفقه للأمر حتى كنت بعيداً عن باترسن . فسألت الكندكتر الى أين نحن ؟ . قال الى نيويورك . قلت ولكني أراني في غير طريق باسيك . قال مبتسماً نحن آتون من باسيك ونبلغ نهر هدسن بطريق هاكنساك فنصل النهر عند «رفرصيد» وهناك نقطع النهر بالفري الى الشارع ١٣٢ من أعلى مدينة نيويورك . وهو يبعد عن المكان الذي أقصده نحو ١٤ كيلو متراً .

وليس من الامور المهينة اضاعة الوقت في البلدان المتمدينة . على اني كنت قد تعلمت أن ارضى ما يكون مستسلماً للأقدار . ولم يكن ذلك بدون جزاء اذ شعرت سريعاً أن ذلك الخطأ كان للخير . لانني عثرت على مشاهد وأماكن جديدة أدون أوصافها في كتب سياحتي . وللحال طرت على أجنحة ائتلاف الافكار الى جو التعميم الذي هو أساس العلوم جمعاء . فالقيت نظرة على سجلات سياحاتي في أقطار الهند والصين واليابان وفيلبين واميركا ، فتجلت لي حقيقة من أثمن الحقائق الاختبارية وهي أنه كثيراً ما كان الخطأ بركة ، والضلالة هادية .

وبالمقايسة والتفكير رأيت ان اختباراتي هي اختبارات الافراد والجماعات في الدنيا ، في عصري هذا وفي كل العصور . اذكر من أحوال الافراد مثلين فقط .

الأول مثل اليتيم . والثاني مثل القسيس المستسلم

الشاب اليتيم

كتب شاب يوما لاستاذه يقول أشكر الله لان والدي مات وانا طفل . لأنه لولا ذلك لما حصلت على بركة التهذيب . وخلاصة الفائدة أن والد ذلك الفتى كان يعنى بتعليم أولاده الصناعة ليساعدوه في سد مطالب العائلة . فلو ظل حياً لما علّم ولده العلوم والفنون . فلما مات الوالد قيّض الله لولده الفوز بما يروم بواسطة جمعيات الاحسان ومدارس الايتام . فكان موت والده خيراً وبركة .

القسيس المستسلم

اشتهر احد القسوس في انجلترا بقوله في كل ما يحدث له « انه للخير » حتى في المصائب والنكبات التي كان كل واحد يراها للشر . وفي ذات يوم دعت ملكة الانجليز ذلك القسيس ، وبعض القسوس من ضيعته الى لندن . ولم تكن يومئذ قطارات السكك الحديدية ولا السيارات او غيرها من وسائل الانتقال . فاضطروا ان يركبوا الخيول على جاري العادة . وبقضاء الهي عثر حصان صاحبنا فسقط عن ظهر حصانه وكسرت رجله . فاقتضى ان يقضي مدة في بيت في تلك الناحية حتى تجبر رجله المكسورة . ولكنه قال ان تلك المصيبة هي ايضاً للخير . فقال له المرتابون وأي خير ترى في كسر رجلك ؟ . أجابهم اني لست أرى ولكن الله يرى ، وأنا أومن بما لا أراه ، واثق انه لخيري وسعادتي .

وقد جاءت النتيجة مبررة ايمان ذلك القسيس ، ومسفهة ارتياب خصومه . فقد امرت الملكة باعدام رفاقه ، لمخالفتهم عقائد كنيستها . وتوقعت شفاء رجل القسيس حتى تضمه الى رفاقه في اللحود . على انها قبل شفائه ماتت ، وكانت اختها على غير رأيها فاباحت للناس الحرية الدينية ، وعليه عاد القسيس الى بيته غانماً مسروراً ورأى كل انسان أن كسر رجله كان أعظم بركات حياته لأنه ضمن سلامته . وذلك يطابق القول الحكيم : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

ولكي ابين انطباق هذه القاعدة على أحوال الانسانية عموما أورد شاهدين الاول خريستوفورس كولمبوس . والثاني الحرب العالمية العظمى

خريستوفوروس كولمبوس

قام هذا القطب التاريخي من شطوط غربي أوربا في ٣ اغسطس سنة ١٤٩٢ برحلة بحرية ، بقصد الوصول الى الهند بطريق الاطلانطي . وكان يقود ثلاث شراعيات هي سنتاماريا ، وبنتا ، ونينا . وقضى في البحر سبعين يوما بليليا يكافح الامواج . وفي ليل ١٢ اكتوبر عثر على البر في سان سلفادور أحدى جزر بهامى الواقعة شرقي شطوط فلوريدا أحدى الولايات المتحدة الاميركيه. ثم بلغ هايتي وكوبا وهو يزعم أنها اطراف بلاد الهند ولذلك دعا أهلها هنوداً . وهو السر في تسمية جزر الخليج المكسيكي الى اليوم « جزر الهند الغربية » وتسمية سكان اميركا الاصليين هنود اميركا . فانه لما تبين الناس خطاهم . وان تلك الاقطار ليست هندستان كما زعموا قبلا اضافوا كلمة غربية للتمييز بينها وبين الهند الشرقية التي هي هندستان . والحادثة واضحة ومعلومة عند كل من له اقل الملم في التاريخ .

الحرب العظمى

لم يصب العالم بكارثة اهيظ من الحرب العالمية الكبرى التي تفجرت مراجلها في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٤ واشتبكت بها أمم المشارق والمغارب ، وظلت نيرانها متأججة أربع سنوات وستة وأربعة عشر يوما حتى القت أوزارها في هدنة ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بين المانيا والحلفاء .

فمادت الجبال تحت صعقات تلك الحرب الضروس ، واهتزت الهيئة الاجتماعية بكل اعتبارانها ، من شرع ودين ونظام ومالية . وذعر الناس خوفا مما يترصدهم . ونادى خطباؤهم وكتابهم بالويل والثبور . ولامس القنوط قلوبا كثيرة ، حتى قلوب الشجعان والابطال . وكادت الدنيا بأسرها تنقلب شر منقلب ، لما رأوا ان قد حجبت ذكاء ، وا كفهر وجه السماء ، وهطلت النوازل ، والكوارث ، وطغت سيولها في اوربا وغربي اسيا ، فبلغ السيل الزبى ، وعلا الماء الزبى ، وكاد الامر أن يذهب سدى . من صروح تدك ، ومرائر تمشق ، وأوشاج تنصرم ، وآمال تتهدم ، وأقارب تتفرق وقلوب تتمزق ، ونجيع يتدفق ، وأزواج تترمل ، وصغار تتيتم فخيل اليهم ان قد قامت الساعة وانشق القمر ، وجاء يوم الحشر المنتظر ، وزلزلت الارض

زلزالها وأخرجت اثقالها ، فتلوت متون الجبابرة تحت احمالها . فصغرت النفوس واسودت الوجوه والقلوب . وهوت الى أعماق اليم ألوف من الجواري المنشآت في البحر كالاعلام بركابها وارزاقها . وقتل أو تشوه في ميادين البر والبحر ما لا يقل عن عشرين مليوناً من بني الانسان ، هم زهرات أوربا ، بل زهرات الانسانية قاطبة . فخيمت في سموات العالم المتمدين غياهب الاحزان ، واكتست عواصم أوربا واميركا بالسواد حداداً على مهج الارواح . وجرى ذوب القلوب على المحاجر ، وكادت تزهق أرواح بني الانسان .

هذا بعض ما يقال في وصف تلك المعارك الطاحنة ، والنكبات التي جلبتها للافراد والجموع . على ان تلك النتيجة السوداء انجلت من سماء الانسانية . وظهر وراءها محيا السماء الجميل . وبث في القلوب السوداء حزناً فجر آمال جديدة . وعاود النفوس ماضي ثقتها وانتعاشها . اليك بعض نتائج الحرب أذكرها باختصار

النتيجة الاولى : تلك حصون الاستبداد في الدنيا .

ثلث قواعد أربعة عروش كان اربابها في عداد الالهة وهي عرش أسرة رومانوف في روسيا وعرش أسرة هوهنزولرن في المانيا ، وعرش أسرة هبسبرج في النمسا ، وعرش آل عثمان في تركيا . وأطلق عقال الامم ، فهبت لحل مسائلها بنفسها . وأجلى ملوك اليونان ، والعجم وغيرهم عن بلادهم وتولت الامم حل مشاكلها . وخطا العالم خطوة كبيرة نحو حرية الشعوب .

النتيجة الثانية : اتساع نطاق الاكتشافات العلمية ، وارتقاء الصنائع والفنون كفن الجراحة ، وفن الطيران ، والطب الباطني ، والمواصلات البرقية . والراديو ، والتلفزيون وغيرها . فصار الناس يسمعون في وادي النيل موسيقى فينا وبرلين ، ويرون وجوه محدثيهم في أمركا وأوستراليا . فلم في أربع سنوات من الارتقاء ما يستحيل أيامه في أربعة قرون لولا الحرب العوان

النتيجة الثالثة : هوت على هام التعصبات والاوهام الدينية ضربة حاطمة . فتقطعت السلاسل والاغلال ، وفتحت عيون الفي مليون الى الحقيقة السرمدية التي هي

أبرة اللذ والاضاءة العام

وغدا طفلنا يدرك ما كان يجهله شيخنا . وتقارب أجزاء الجسم الاجتماعي ، ومالت للترابط والتماسك . بواسطة جمعيات اتحاد العمال ونقابة الشعوب ، وكادت الدنيا تصبح بيتاً واسعاً ، وسكانه أسرة واحدة منتشرة في أقسامه

فالحرب العالمية ، وهي أعظم كارثة حلت ببني الانسان ، كانت سبب أعظم ما اسبغ على هذا السيّار من البركات

هنا أقف وأرسل الى آفاق هذه القضية نظرة حكيمة . فأقول : —

مَن من قراء هذه السطور يجهل بسائط علم الكيمياء والنواميس الطبيعية ، التي هي مدار الميكانيكيات والطب والهندسة والصناعة ؟ . ومن يجهل ان معرفة تلك النواميس أدى الى اسعاد البشرية . بدليل ما نراه كل يوم ، في كل مصر ، من وسائل الراحة والسرور من نتائج اكتشاف تلك النواميس . فهل ينحصر ذلك في النواميس السائدة القسم المادي في هذا الوجود ، أو يعم النواميس الحاكمة الاجتماع البشري وعالم الروحيات ؟ .

لقد خطا العلم سنة ١٩٠٤ خطوة جديدة بادماجه علم الاجتماع في سلك العلوم المدرسية . ومن ثمة صارت جامعات الدنيا تعلمه طلابها كما تعلمهم نواميس الجوامد والاحياء من نبات وحيوان وانسان . فرسل النواميس الطبيعية والاجتماعية مستقل بعضها عن بعض كالحصى على شاطىء البحر ، أو هي مترابطة أو متفرعة عن أصل يجمعها ويفسرها ؟ .

زعم الاقدمون ان عناصر الدنيا أربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب. وانها الطبائع الاربع التي فيها ركب الانسان . وعلى ذلك شاع قولهم « ان المادة خامس طبيعة » . على ان فن الكيمياء قد دخل في طور جديد منذ عهد ولتون ولافوازييه وكشف أساطينه البسائط التي منها تتركب المواد الاربع التي كانت تحسب عناصر أو أصولا . فثبت لهم انها مركبة . فالماء مركب من عنصرين هما الاوكسيجين والهيدروجين والهواء مؤلف من الاوكسيجين والنتروجين والنار ظاهرة اتحاد أوكسجين الهواء بكربون المادة المحترقة ، أو فصفورها أو كبريتها . . .

وان في التراب عشرات من البسائط كالحديد والزئبق والنحاس والصوديوم والسليكون والكلسيوم وغيرها .

وقد أربى عدد البسائط المعروفة اليوم على التسعين عنصراً . وذلك من خصائص فن الكيمياء .

وقد خطا فن الكيمياء والعلم الطبيعي خطوة جديدة مجيدة باكتشاف بوهر الدانمركي حقيقة الجواهر الفردة وانها مؤلفة من ذرات كهربائية هي عبارة عن نواة مركزية يدعونها « بروتون » وذرات صغيرة تدور حولها دوران السيارات حول الثوابت ويدعونها « كهارب » .

وهنا يتقدم السر اوليفر لدج لاتخاذ خطوة جديدة في ميدان العلم الطبيعي . فيرى ، ويرى معه غيره من أقطاب العلم الطبيعي ، ان البسائط التسعين ليست الا (مادة) الاثير تكونت أو تألفت بعامل سري نجهله . هذه هي قضية اليوم في ميدان العلم الطبيعي . واني من الذين يعتقدون صحتها وان أعوزها الدليل . ولا ريب عندي في انها ستحل في القريب العاجل . فان حل الجواهر الفردة بالفعل فتح أمام علماء الطبيعة بابا واسعاً وسبيلا رحباً . وستصبح أسرار اليوم من بسائط معلومات احفادنا وكما تقرر علميا ان كل اجرام السماء هي من مواد واحدة ، سيتقرر علميا ان كل بسائط المادة هي واحدة في الاصل وأصلها هو الهيولى اللاصورية .

فهل يجوز لي ان اقول ، قياساً على ذلك ، ان شأن النواميس الكونية هو نفس شأن البسائط أو العناصر ؟ . وان النواميس تفرعت من أصل واحد تفرع البسائط من أصل واحد ؟ . فتكون نواميس الكهربائية والمغناطيسية والبيولوجية والمترولوجية والفيزيولوجية والصيكوبوجية والصوشيولوجية ، وما قد يضاف الى هذه كلها واحدة الاصل والحقيقة المركزية متنوعة الظاهرات والاوصاف ؟ —

وعلى أي أساس أقول ؟ .

بل لماذا لا أقول ؟ .

فاني وان لم يكن لي مكانة فلسفية ، ولم يسبق لي في تاريخي اكتشاف حقيقة أو

ناموس في دائرة هذا الكون ، مع ذلك ، فانا انسان . ولكل انسان ملء الحق في بسط احلامه وخيالاته والزمان والاحفاد كفيلان بصحة تلك الاحلام أو عدم صحتها .

فاني أرى ، وأراني على هدى في ما أرى ، ان النواميس الطبيعية والنواميس الادبية ، على السواء ، هي ظاهرات حقيقة مركزية هي ناموس النواميس . والقول « احبوا بعضكم بعضاً » هو حق طبيعي كالقول ان « الحرارة تمدد الاجسام » . ولماذا لا يكون الحب والحرارة ظاهرتين مميزتين لحقيقة واحدة ؟ . فالى الاصل السرمدي الذي منه تنبعث هذه النواميس المتنوعة . استند في قولي : ان من محاسن هذا الوجود ان قرنت اشواكه بالورود . فخير لنا الحمد على الورود بدلا من التذمر على الاشواك . أو ليس نعمة جلى ان توجد الورود وليس الاشواك وحدها ؟ . فخطيئاتنا وفواجع حياتنا — وكل الاشواك في عيوننا وقلوبنا — هي خاضعة لحكم الناموس العام ، وكلها مرتبة ، او آيلة لخيرنا وسعادتنا .

فهذا الكون جميل ، على قدر ما أراد افلاطون ان يجعله ، بل بالحري اكثر مما اراد . وليس فيه شر الا ما جعله جهلنا شراً . وعلى قدر تعمقنا وتوسعنا وتحققنا في درس اصوله تزداد تجليات هذه الحقيقة لافهامنا حتى اننا نرى في ختام اختباراتنا ان ليس في الامكان ابدع مما كان

مصر هذا فهمان

— ستكون هذه الليلة جميلة جداً فانه عند الساعة الثامنة سوف نوقع على البيانو ونشدو شيئاً من أشعاري والساعة العاشرة نتناول العشاء فهل تحضر لتشنف اسماعك بما يطرب ويهز اوتار القلوب ؟

— سأحضر اكراماً لك . انتظرني الساعة العاشرة تماماً ....

هو — هذا الفستان جميل جداً كأنه دليل على الفرح والسرور

هي — بل هو مأساة حزن

هو — وكيف ذلك ؟

هي — لقد أصبح مأساة حزن عندما اطلع زوجي على قائمة حسابه